

التحرير والتنوير

وإنما كانت الكعبة قياما للناس لأن الله لما أمر إبراهيم بأن ينزل في مكة وزوجه وابنه إسماعيل وأراد أن تكون نشأة العرب المستعربة " وهم ذرية إسماعيل " في ذلك المكان لينشأوا أمة أصيلة الآراء عزيزة النفوس ثابتة القلوب لأنه قدر أن تكون تلك الأمة هي أول من يتلقى الدين الذي أراد أن يكون أفضل الأديان وأرسخها وأن يكون منه انبثاث الإيمان الحق والأخلاق الفاضلة . فأقام لهم بلدا بعيدا عن التعلق بزخارف الحياة ؛ فنشأوا على إباء الضيم وتلقوا سيرة صالحة نشأوا بها على توحيد الله تعالى والدعوة إليه ؛ وأقام لهم فيه الكعبة معلما لتوحيد الله تعالى ووضع في نفوسهم ونفوس جبرتهم تعظيمه وحرمته . ودعا مجاورهم إلى حجة ما استطاعوا وسخر الناس لإجابة تلك الدعوة فصار وجود الكعبة عائدا على سكان بلدها بفوائد التأنس بالوافدين والانتفاع بما يجلبونه من الأرزاق وبما يجلب التجار في أوقات وفود الناس إليه ؛ فأصبح ساكنوه لا يلحقهم جوع ولا عراء . وجعل في نفوس أهله القناعة فكان رزقهم كفافا . وذلك ما دعا به إبراهيم في قوله : (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا) . فكانت الكعبة قياما لهم يقوم به أود معاشهم . وهذا قيام خاص بأهله .

ثم انتشرت ذرية إسماعيل ولحقت بهم قبائل كثيرة من العرب القحطانيين وأهلت بلاد العرب . وكان جميع أهلها يدين بدين إبراهيم ؛ فكان من انتشارهم ما شأنه أن يحدث بين الأمة الكثيرة من الاختلاف والتغالب والتقاتل الذي يفضي إلى التفاني فإذا هم قد وجدوا حرمة أشهر الحج الثلاثة وحرمة شهر العمرة وهو رجب الذي سنته مضر " وهم معظم ذرية إسماعيل " وتبعهم معظم العرب . وجدوا تلك الأشهر الأربعة ملجئة إليهم إلى المسالمة فيها فأصبح السلم سائدا بينهم مدة ثلث العام يصلحون فيها شؤونهم ويستبقون نفوسهم وتسعى فيها سادتهم وكبرائهم وذوو الرأي منهم بالصلح بينهم فيما نجم من ترات وأحن . فهذا من قيام الكعبة لهم لأن أشهر الحرم من آثار الكعبة إذ هي زمن الحج والعمرة للكعبة . وقد جعل إبراهيم للكعبة مكانا متسعا شاسعا يحيط بها من جوانبها أميالا كثيرة وهو الحرم فكان الداخل فيه آمنا . قال تعالى (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) . فكان ذلك آمنا مستمرا لسكان مكة وحرمها وآمنا يلوذ إليه من عراه خوف من غير سكانها بالدخول إليه عائدا ولتحقيق أمنه أمن الله وحوشه ودوابه تقوية لحرمة في النفوس فكانت الكعبة قياما لكل عربي إذا طرقه ضيم .

وكان أهل مكة وحرمةا يسفرون فف بلاد العرب آمفنف لا ففعرض لفم أء بسوء فكانوا ففءرون وفءءلون بلاد قبائل العرب ففأفونهم بما ففءاجونه وفأأءون منهم ما لا ففءاجونه لفبلغوه إلف من ففءاجونه ولولاهم لما أمكن لفءاجر من قبفلة أن ففسر فف البلاد ففعطلت الفءارة والمنافع . ولءلك كان قرفش فوصفون بفن العرب بالفءار ولأءل ءلك ءعلوا رءلف الفشاء والصفف اللفن قال ء تعالف ففهما (لإفلاف قرفش إفلافهم رءلة الفشاء والصفف) . وبءلك كله بقفء أمة العرب مءفوظة ءبلة الفف أراد ء أن فكونوا مءبولفن علفها ففءفأف بعء ءلك لفلفف ءعوة مءمء صلف ء علفه وسلم وءملها إلف الأمم كما أراد ء تعالف وتم بءلك مراده .

وإذا شئف أن فعءو هذا فقل : إن الكعبة كانت قفاما للناس وهم العرب إذا كانت سبب اهءءائفهم إلف الفوففء واتباع الفنفففة واستبقت لفم بقفة من فلك الفنفففة فف مءة ءاهلففهم كلها لم فعءموا عوائء نفعها . فلما ءاء الإسلام كان ءء إلفها من أفصل الأعمال وبه فكفر الذنوب فكانت الكعبة من هذا قفاما للناس فف أمور أءراهم بمقءار ما ففمسكون به مما ءعلت الكعبة له قفاما .